



تمرد

محمد محمود سليمان

رواية



تمرد

رواية

محمد محمود سليمان

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

<http://book-juice.com>

رواية

تمرد

المؤلف : محمد محمود سليمان

نشر في : يناير ٢٠١٧

تصميم غلاف : يارا عمر

تنسيق داخلي : عصير الكتب للنشر الإلكتروني



تمرد

إلى الخروف الذي رأيتَه يُضحى به منذ أكثر من عشر سنوات ..
فلم أتذوقه مع حبي للحم الضأن !!

و إلى الأرنب الذي لعبت معه في بيت جدتي ..
فلم أستسغ أن أمضغ لحمه في فمي !!

و ذلّلناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون

صدق الله العظيم

(1)

يصحو نور من نومه كعادته فجرا ، لم يزل مزارعا تقليديا كأسلافه ، لم ينحرف مع البقية في عبادة التكنولوجيا - كما يسميها- التي سيطرت على كل ما يحيط بعملهم.

يصلي الفجر في الزاوية القريبة من منزله ، ثم يرجع ليحلب الماعز الذي يشرف على تنشأته ، فيذهب إلى أرضه الملاصقة لداره حتى غروب الشمس ، و ينام بعد صلاة العشاء.

حياة روتينية مملة ، تئد أية أحلام في مهدها ، و هذا ما لم يرض عنه أبناؤه قط.

بعيدا عن القرية التي تغيرت ملامحها بفعل المال ؛ حيث تنتصب الأبراج الخرسانية في كل حدب و صوب ، مغتصبة الأرض الزراعية و متحكمة في نفوس الخلق.

زحفت المدنية بعاداتها و تقاليدها بقوة ، محولة القرية إلى نسخة مشوهة منها ، حين اعترض نور قديما لما رأى هذا الزحف ، رد عليه أصدقاؤه ساعتها بأن هذا هو الحلم الأعظم ، هيئة المدينة و أخلاق القرية ، لو كانوا يعرفون مسمى اليوتوبيا لذكروها بالتأكيد.

هو نفسه لم يرضخ لكل تلك المغريات ، لم ينقض داره ليشيد بناية قبيحة تنتصب في وجه السماء متحدية ، لم يطق يوما ضيق حجراتها و تقييدها لحريته ، كان وسع دوار منزله الذي يُسكن نفسه السلام ، و منظر حقله من النافذة حيث يمتد اللون الأخضر المريح للعين و الأعصاب ، شيئا لا يمكن أن يتخلى عنه.

أما من رضح فكان أبناءه.

يتذكر نور صديقه مسعد الذي يمتلك نصف أراضي القرية الآن ، منذ أربعين عاما و هما في ريعان شبابهما قرر أن يرحل ، يجرب حظّه في الجانب الآخر من الشاطئ ، حيث البلاد البكر التي تنتظر الرجل/الفارس المصري ليفتحها .. و قد كان.

مغامرة مسعد في البلاد الإيطالية دفعت العديد لركوب المخاطر تبعا لطريقته ، يدفعون كل ما يملكون من مال ، يركبون البحر المظلم ، آملين أن يحققوا غدا أفضل.
كل المال الذي تدفق ليغير وجه القرية و معيشتها كان من نفس الطريق.

و حتى و سنوات عمره تقارب الستين ، لم يسامح نور صديقه مسعد على سُنته السيئة -هكذا أسماها- التي أَلقت بقريته الحبيبة في غياهب المدينة الزائفة ، و لم يسامحه أيضا على فقدان ابنه البكر الذي ابتلعتة الأمواج و هو في طريقه لتحقيق حلم الشراء الخادع .. لم يسامحه أبدا.

أنجب من الأبناء تسعا ، ثلاثة من الذكور ؛ مات أكبرهم حميدة في البحر ، و نجح أوسطهم عبد الرحيم في الوصول إلى بلاد الفرنج ليعث لهم بالأموال ، التي شيدت بها زوجته و أصهاره برج يخفي الشمس عن دار نور حينما تتحرك وراءه ، و كأنه يتحدى والده الذي رفض أمواله ، و يمنعه حقه من الطبيعة.

أما أصغرهم فهو سعيد الذي يشبه أباه في كل شيء حتى عاداته اليومية.

تقبع بنتان صغيرتان معه في المنزل ؛ فريحة و زينب ، أما البقية ففي دور أزواجهن يكملن دورة حياتهن الطبيعية.

في هذا اليوم بالذات ، أحس نور بغصة و هو يفتح عينيه ، غصة لم يشعر بها منذ وفاة شريكة عمره أم محمد منذ عامين ، لم يدر لماذا ، هل أصاب أحد أبنائه مكروه؟.

لهج بذكر الله ، و قام فتوضأ و شرب ثم اتخذ سبيله لصلاة الجماعة في المسجد.

أثناء عودته أحس بانقباض آخر في قلبه ، وقف ليتأمل الطريق الذي يحفظه عن ظهر قلب ، يدور حول نفسه ليرى القرية بنظرة بانورامية ، القرية التي لطالما أحبها و لم يخرج منها إلا مرات قليلة لا تتعدى أصابع اليدين.

يحدث نفسه بأن هناك شيئاً غريباً اليوم ، و وكأنه يتشممه مع تباشير الصباح ...

و عرف ذلك حينما جاء ليحلب ماعزته فأبت !!!

هربت الماعزة منه في كافة أنحاء الحظيرة ، جن جنونه ، أخذ يجري وراءها حتى أنهكه التعب ، دقائق قلبه التي لم يسمعها منذ جاءه خبر وفاة ابنه تشير لديه مشاعر الحنين.

أخيراً وقف ، نظر إلى الماعزة نظرة نارية ، أحس بأنها تبادله النظرة بنظرة تحدي !!

(أتراك جنت يا نور و خرف عقلك؟؟)

يحدث نفسه في خوف ، في نفس اللحظة التي لحق به فيها ابنه سعيد

(ما بك يا أبي؟) ، يسأله في قلق

(أتعبتني تلك العنزة ، لم يحدث هذا مسبقا) ، يرد عليه

(إذن فسأمسكها لك ، و قم بحلبها)

(قد يجف ضرعها من الخوف أو من المقاومة) ، يجيب نور في تفكير

(هل تملك حل آخر يا أبت ؟)

ينظر نور إلى ابنه في تسليم ، ثم يحول نظره إلى الماعزة التي لم تفعل ذلك مسبقا ، يوجه لها

الكلام وكأنه يكلم أحد أبنائه

(ماذا بك ؟ ، لم تفعلي ذلك معي مسبقا ؟)

(و لن أفعلها ، لقد قررنا نحن معاشر الحيوانات أن نتمرد عليكم بني البشر ، صدر الأمر فجرا و

عُمم ، ليس لكم عندنا حاجة أو حقا مكتسبا !!)

ترد عليه الماعزة في شموخ

(من الواضح أنني جنت حقا ، المهم الآن أن لا أظهر كالمجنون الذي تحدثه ماعزته أمام سعيد)

، يحدث نفسه في خوف

(أبي !!!) ، يصرخ سعيد في دهشة

(هل سمعت الماعزة تتكلم مثلي ؟؟؟)

عندها عرف نور لماذا أحس بالغصة و الانقباضة منذ صحوه !.

(٢)

(و لماذا نتمرد؟)

تسأل البقرة الأولى في تعجب زميلتيها اللتين تنظران إليها في استخفاف

(لماذا تنظران إليّ بمثل تلك النظرة؟) ، تكمل حديثها

(و لماذا لا نتمرد؟) ، ترد إحداهما

(الأمر وصل إلى حد خطير في بعض القارات ، لقد خرج عن السيطرة تماما !!) ، تكمل الأخرى

(هذا لا ينفي كلامي أو يجعله خطأ !! ، كل ما أسأله هو لماذا يجب علينا أن نتمرد؟) ، تكمل

الأولى كلامها في وسط صمت من الآخرين

(سمعت شائعات كثيرة ، بدأ التمرد في الدول الفقيرة حيث انتشر المرض و الهزال هناك ، أما

نحن هنا نسمعونا الموسيقى و نأكل ما لذ و طاب لنا ، و أيضا نرعى في الحقول الممتدة على

مرمى البصر) ، تصمت و تنظر لزميلتيها اللتين تحاولان تفادي نظرتها

(ماذا سيعود علينا من التمرد؟؟) ، تسألهما في تصميم

يخيم الصمت عليهم جميعا ، يواصلن سماع الموسيقى الكلاسيكية المنبعثة من مكبرات الصوت

في أعلى الغرفة التي يتواجدن فيها.

(الحرية)

تنطق إحداهما بعد فترة

(الحرية !!) ، ترد الأولى في تعجب

(نعم ، الحرية ، لقد ولدنا و تربينا على الطاعة العمياء ، يؤخذ خيرنا بعدم رضانا ، و حينما تنتهي فترة خصوبتنا و إنتاجنا ، يتم تسليمنا إلى حد السكين ، لكي يستفاد من لحومنا بعد ضروعنا ، أي حياة تلك؟؟) ، تكمل في حماسة مع موافقة من زميلتها الأخرى التي تكتفي بخوار غير مفهوم

تصمت الأولى متفكرة قليلا ثم ترد

(و ماذا ستعود علينا الحرية؟)

(سنأكل حين نريد ما نريد ، لن يستفيد بألباننا غير أولادنا ، سنموت بين عائلاتنا ، و سنستشق هواء لم نعرفه قبلا ، هواء الحرية!) ، ترد مصممة مع خوار آخر من زميلتها بالموافقة

(هذا جيد !!) ، تهز رأسها في لا مبالة البقرة الأولى ، ثم تكمل

(و هل سنجد مثل هذا الغذاء النظيف الخالي من الجراثيم و الأمراض ؟ ، لكي نأكل ما نريد حين نريد ! ، الأغلب أننا لن نجد ما نأكله و سيحدثم القتال فيما بيننا عليه ، حتى من لم يمت في القتال سيموت من الجوع!) ، يعلو صوتها في حماسة

و حين رأت النظرة الحيرى في عيونهما و لم يرد عليها أحد أكملت

(خلقنا الله ننتج ألبانا تفيض عن حاجة أولادنا ، هل سنلقى بها في الماء كما يفعل البشر
بمنتجاتهم الزراعية لكي يحافظوا على سعرها ؟ ، أم سنعطئها لمن يأكل اللحم علّه يصبح نباتيا
مثلنا في يوم من الأيام ؟)

تتهجد بخوار خفيض

(و من أنتما غير عائلتي ؟ ، و ما هي العائلة غير هذا ؟ ، و هل تحسبان أن الموت سينتظرنا
وسط دموع الأقارب ؟ ، و هل تحسبان أن هواء الحرية لن تعكره زفرات من يتربصون بنا ليأكلوا
لحومنا أحياء !! ، ما بالكم تكفرون بالنعمة لأجل سراب لا تدركون ماهيته) ، يتصاعد صوتها
حتى يصل إلى حد الصراخ و هي تنهي جملتها.

تصمت زميلتها مرة أخرى ، ثم تقول إحداهما

(أنت تشتريين راحة بالك بما تملكيه ، بحياة قد تكون هي ما تبتغيه)

(و ماذا في ذلك ؟) ، ترد الأولى

(لا شيء ، و لكن دعيني أسألك سؤالا واحدا)

(ما هو ؟)

(هل لو قررنا جميعا التمرد ، ستنضمين إلينا أم ترجحي كفة مصلحتك الشخصية و تخونين
الجمع ؟؟)

تصمت الأولى لوهلة ثم كادت أن تجيب ، فقاطعتها ملقية السؤال منهيّةً الحديث

(تفكيرك هذا يقول كل شيء).

(هل البقر يتكلم فعلا ؟ ، أم أن الماريجوانا التي شربتها ليلة البارحة كانت مخلطة بحشائش
ضارة؟)

تسأل هيلدا العاملة بمزرعة البقر الهولندية نفسها بصوت مسموع

تنظر إليها الثلاث بقرات في حدة

(لا لقد قررت جميع الحيوانات أن تتكلم لغتكم أيها البشر) ، ترد إحداهن

لتقع هيلدا فاقدة للوعي.

(٣)

لم يدرك واينا ما يحدث بالضبط في مثل تلك اللحظة ، حيوان اللاما خاصته يقبع أرضا في منتصف ممر جبلي ضيق في نقطة عالية من جبال الإنديز و لا يريد التحرك ، الغريب في الأمر أنه لا يحمل شيئا ثقيلًا ، أو بذل مجهودا مضاعفا يتطلب منه راحة كتلك .

حاول معه المرة تلو الأخرى دون جدوى ، يبدو أنه قرار لا رجعة فيه من حيوان لا يملك ناصية قراره من الأساس .

أخذ واينا يفكر في ذلك .

رغم انحدار أصله من الإنكا ، و كل الأساطير التي تربي عليها ، إلا إنه لم تخطر هذه الفكرة قبلا على عقله ؛ ماذا لو أصبح للحيوانات إرادتها الحرة ؟؟ ، ماذا هم فاعلون ؟ .

لا لم يخف ، هو لم يعامل حيوانه بغلظة قط ، حتى في تلك اللحظة التي يرقد فيها أرضا رافضا الحركة و معرضا كليهما لخطر التجمد بردا لو حل عليهما الليل .

(متى ستتحرك أيها الصديق ؟) ، يكلمه واينا برفق و كأنه يكلم صديقا حقيقيا .

(لن أتحرك ، إذا أردت المسير فلتكمل ، أما أنفراض حتى يَبْتَ في الأمر) ، يرد عليه حيوانه .

يبتلع واينا ريقه في صعوبة ، يفرك عينيه في قوة ، و يحاول أن ينظف أذنه بتلك الحركة المعتادة من بني البشر حين لا يصدقون ما يسمعونه .

(هل تتكلم حقا؟)

(نعم)

(منذ متى؟؟)

(هذه أول مرة أتكلم فيها بلسانكم)

(و لماذا؟؟)

(حتى تفهم دوافع قرارنا)

(و ما هي؟؟ و من أنتم؟؟)

(لقد اجتمع معشر الحيوانات على التمرد عليكم)

(لماذا؟؟)

(لكل ما فعلتموه و تفعلوه لنا)

(و هل فعلت لك شيئا؟؟)

(حقيقة لا)

يصمت واينا لوهلة محاولا استيعاب أنه يتناقش مع حيوانه ، ثم يكمل

(إذن فلنتحرك ، لو ظللت رابضا ستموت ليلا مهما يكن عليك من فراء)

يصمت مرة أخرى ثم يكمل

(لنتحرك و لتفعل ما تشاء بعد أن نصبح آمنين)

يسرح الحيوان بنظره في تفكير لاتخاذ قراره

(لنتحرك نعم و لكن بشرط)

يرد عليه واينا : (فلتشرط)

(لن تركب ظهري ، هذا هو قرارنا أجمعين)

تطل من واينا نظرة حزن واضحة

(لك الحق ، هيا بنا)

ليكملا مسيرتهما صامتين.

(٤)

هربت زوجته البارحة مع عشيقها ، بعد أن غيب الموت ولديه منذ عامين و هو لا يحس بطعم الحياة ، ظلمها كثيرا و هو مُرٌّ بذلك ، و لكن أن تهرب و تتركه هكذا مُعَلِّقا عاره على جبينه أمد الدهر فهذا الذي لن يكون.

سيبحث عنها في شتى البقاع حتى يجدها و يقتلها ، هي فقط ، لا يهमे عشيقها الآن ، لو كانت صالحة لما أصبح لديها عشيق مهما أغواها الرجال ، هكذا يؤمن.

لم ينم منذ البارحة ، منذ اللحظة التي عاد فيها مع غنمه فوجد خطابا مكتوبا بخط رديء قرأه بصعوبة ، و عرف أن زوجته لم تعد منذ هذه اللحظة ضمن أملاكه التي تضم هذا الكوخ الحقير و قطع من الأغنام يبلغ تعداده السبع و الثلاثين ؛ يكتب على كل منهم رقمه ليرتب رأس ماله الحقيقي في الحياة.

أخذ يمتص القات طوال الليل ، و أضاف إليه الخمر الذي أدمن معاقرته منذ وفاة ولديه بفعل الذئب.

لم يعرف ماذا يفعل ، في تلك القطعة المقفرة الحزينة من بلاد اليمن السعيد ، يقبع عبد الله محطما داخل كوخه الذي ازداد ضيقا عليه برحيل زوجته على عكس ما توقع ، ترعى أغنامه خارج كوخه و لم يكلف خاطره بحمايتها من الذئاب التي تتربص بها.

(هل هناك خسارة أفدح مما أنا فيه؟؟) ، يحدث نفسه في قنوط

لم يهدأه القات أو تنسيه الخمر

فخرج و أخذ يضرب في الأغنام يمنا و يسرة حتى استنفذت قواه فخار على الأرض ، و بصعوبة
بالغة أخذ يزحف عائدا إلى كوخه ، راكلا بابه الصدى مقفلا إياه
(حتمنا غدا ستحل كل تلك الكوارث) ، ممنا نفسه بالمستحيل ذاته.

يستيقظ عصرا ، أشعة الشمس الحارقة تتسلل من خلال الفتحات الضيقة في الباب المهترئ لتقع
على وجهه مزعجة إياه.

يصحو و ألف مطرقة تخبط بقوة على جانبي رأسه ، لم يزل تأثير الخمر و القات عليه ، فيفتح
عينيه بصعوبة.

يغلقهما ثم يفتحهما مرة أخرى

يكشر جبينه

يفرك عينيه

يغلقهما .. ينتظر قليلا .. ثم يفتحهما ببطء

من خلال شق الباب الموارب يرى قطيعه و قد اصطف كالجيش في مواجهة الكوخ

آثار ضربه عليهم منذ البارحة جلية

يتقدمهم الخروف رقم ٢٠ ، مكسور قرنه ، و دماء^{*} متجلطة على رأسه ، كرأس مثلث و وراءه
البقية في ترتيب بديع

و ملقى جثة أحد الخراف وراء الباب

يبتلع عبد الله ريقه في صعوبة

(لقد قتلته)

هذا ما كان ينقصه فعلا !!

أن يكلمه أحد الخراف.

يكمل الخروف رقم ٢٠

(لقد قتلته بدون جريرة ، حتى لم تقتله لتستفيد من لحمه أو لتسد جوعك ، بل قتلته لأن عقلك
القاصر لم ير سبيلا لتهدأة نفسه سوى بإيذائنا)

فكر عبد الله مرارا بأنه بالتأكيد يحلم

(و أتانا الهاتف أمس بأن علينا التمرد ، لقد طفح الكيل منكم أبناء آدم)

لن يرد ، لو رد على خروفه فسوف يؤكد جنونه ، لن يرد ؛ حتى يقنع نفسه بأنه يحلم.

(ستُحبس بداخل كوخك و لن تخرج حتى نقرر ما نفعله بك ، و إلى ذلك الحين ستحرم من الطعام و الشراب أيضا ، و من يقدم لك العون من القطيع سيلحق بأخينا هذا) يقولها الخروف رقم ٢٠ ثم ينطلق ليخبط الباب برأسه ليقفله عليه.

يسمع عبد الله كثيرا من المأمآت ، و صوت ارتطام أشياء صلبة ببابه المعدن المتهالك عندما قام ليفتح الباب و لم يتحرك معه

عندما جرح أصبعه و خر دما حين حاول فتحه عنوة

ساعتها و ساعتها فقط عرف بأنه لم يكن حلما على الإطلاق.

(٥)

يرفع أحد الخيول العربية الأصيلة قائمته الأماميتين في قوة ، و هو يصهل بشدة ، في نادي الفروسية القطري.

ترتخي حركته فجأة و ينظر إلى زميله

(سيأتي أحدهم الآن ليتفقد ما حدث ، سننتهز فتح بوابة ساحة التدريب لننطلق و نفعل ما تم الاتفاق عليه)

يصمت لحظة في تصميم

(من أراد أن يبقى في ظل العبودية فلن يمنعه أحد)

(و لكن ...) ، يتكلم أحدهما فيقاطعه

(من يقود الحيوانات إن لم نكن نحن ؟) ، فيصمتان

مع انتهاء جملته يدخل أحد المدربين للساحة لتفقدتها

ينطلق الثلاثة خيول باتجاهه فجأة ، و صوت حوافرهم فقط كافي لإثارة الهلع ، يُباغَت المدرب

فينطلق ثلاثتهم من البوابة في اتجاه غرف المبيت لاقتحامها و تحرير بقيتهم.

يدب الذعر أرجاء النادي ، و يخرج الحراس بنادقهم للسيطرة على الموقف.

من فجاءة الموقف ، لم يخرج الحراس البندقيات المزودة بالأسهم المخدرة ، بل أمسكوا
البنادق المعتادة ، و يهيم أحدهم بإطلاق النار تجاه الخيول ، فيمسكه زميله و يوجه فوهة بندقيته
إلى السماء فتطلق الرصاصة لتكسر صمت الليل

يتوقف الجميع بعد الرصاصة

البشر و الخيل

(هل أنت غبي ، كم ستقتل منهم ، أنعلم سعر أحدهم كم يبلغ ؟ ، واحد منهم قد يبلغ سعر
عائلتك بأكملها)

يصرخ الذي وجه فوهة البندقية لأعلى

تستدير الخيل ببطء تجاههم ، نظرة تحدي غريبة لم يرها أحد قبلا

يتقدم زعيم التمرد خطوتان للأمام

يقف قبالة البشر المجتمعين

ينقل نظره بين الاثنان الأقرب إليه و الذي دار الحوار السابق بينهما

يثبت نظره على المطلق بندقيته

(لقد سمعت ما قاله لك ، و هو محق تماما)

يستدير الحصان القائد بعد مقولته ، يشق صفوف أبناء جنسه ليتقدمهم ، ثم ينطلقوا مبتعدين

لتسقط بنادق الحراس جميعا.

(٦)

تفريق هيلدا فجأة من إغمائها ، تقف مسرعة ، تنهد متعجبة ممسكة ناصية رأسها ، تعدل
خصلات شعرها الذهبية المتناثرة

تنظر إلى الثلاث بقرات نظرة ساهمة ، تمد فمها الرقيق للأمام بعلامة الامتعاض ، و توجه إليهم
كلامها

(أوه لقد تخيلت للحظة أنكم تتكلمون بلساننا)

يعم الصمت و لا تحرك البقرات ساكنا

تبدأ الابتسامة بغزو شفتي هيلدا ، التي سرعان ما استحالت لفهقهة عالية

(يا لي من مجنونة !!) ، و تكمل ضحكها لثواني

ثم تقف فجأة و تنظر إلى البقر بإمعان ، لاحظت أن البقرات ينظرن إليها في تصميم دون تحريك

(لست مجنونة ، ها ؟؟) ، توجه كلامها إليهن مرة أخرى

(لا ، أنت عاقلة تماما) ، ترد عليها إحدى البقرات

(لا يا إلهي !!) ، كانت هذه من هيلدا التي سرعان ما سقطت فاقدة للوعي مرة أخرى و هي

ممسكة برأسها.

(٧)

ظل نور طوال أسبوعين كاملين طريحا بالفراش ، لُجم لسانه فلم يتكلم ، و ضعفت حركته فلم يقو على النهوض.

أتوا له بالأطباء دون جدوى ، كان جل تشخيصهم أنه يعاني من صدمة عصبية حادة و ستتحسن مع الأيام.

أما سعيد فلم يدخل الحظيرة مجددا و التزم الصمت ، لم يستطع أن يبوح بما حدث فيها ، و إلا سيُتهم هو و والده بالخرف ، هل سيأخذ أهل القرية ليكلموا العنزة ؟ ، و كيف سيتقبلون هذا ؟ ، و هل سيتحمل سخريتهم الزائدة ؟.

لم يكن هو و والده من أثرياء القرية ، و لكن والده يتمتع بالهبة التي يفرضها السن و كدح العمر ، و هو ليس بابنٍ عاق ليزيل من اسم أبيه هذه الصفة !.

بدأ سعيد يلاحظ أشياءً غريبة تحدث بالقرية.

أولها كان الترحل الذي أصبح شائعا ، لم يعد يرى الحمير تسير في القرية ، منذ فترة و ازدادت التكاكك ؛ تلك العربات صغيرة الحجم و الحمولة تغزو القرى و تحل محل الحيوانات في

الانتقالات ، و لكن ظلت الحمير هي وسيلة الانتقال الأكثر شيوعا و تقبلا بالأخص ممن يمدون جذورهم في الأرض يوما بعد يوم مواجهة لكل ما و من يريد اقتلاعها.

ثم شح بيض الدجاج !!

فاختفت بائعات الجبن من السوق !!

بل إن العسل لم يعد متوفرا !!

جن جنون سعيد ، لو ما يفكر به صحيحا ، إذن فقد كان تهديد العنزة حقيقيا ، و هي كارثة لم يتوقعها أحد أبدا !!.

يتجول مساءً في القرية التي يلفها الصمت على غير عاداتها.

لا أثر لكلاب الشوارع النباحة ، أو لاقتتال القطط الشرسة ، أو حتى لأصوات صراخير الحقل الرتيبة !

ماذا يحدث في هذا العالم !!

هل هو يوم الدينونة !!

يصل إلى المقهى العمومي بالقرية ، يجد الجميع جلوسا ساهمين ، و كأن كلا منهم فقد عزيزه.

يقف أمامهم في ثبات ، لا يقو أحد أن يرفع نظره إليه ، أو لم يلاحظوا وجوده من الأساس.

(ماذا حدث لنا ؟؟) ، يرفع عقيرته في قوة.

ينظر إليه الجميع بعد انتباهتهم من الغفلة ، صوته شُبَّه لهم كنفخ الصور الذي يبعثهم من الرقاد.

لم يدروا جوابا ، و لم ينتظر هو

(هل فقدتم أصواتكم جميعا؟؟) ، يسألهم سعيد مرة أخرى في غضب

(إذن سوف أذهب لأتكلّم مع من يمكن أن يجيبني !!) ، يلتفت قافلا نحو بيته و هو يريد

الحظيرة.

(8)

(ماذا سنفعل الآن أيها الرقم ٢٠) ، يسأل أحد الخراف قائد التمرد الذي صمت لحظة للتفكير ،
ثم سأل أكبر الخراف سنا

(كم يكفي منا لمواجهة الذئب؟؟)

فكر هو الآخر للحظات : (اعتقد أن عشرة يكفون لذلك)

إذن سيبقى هنا منّا ثلاثة عشر ، و سيذهب الآخرون للمرعى ، و من ثم نبادل الأدوار) ، موجهها
كلامه للجموع

سمع مأمآت خافتة بين الغضب و التعجب

(ماذا بكم؟) ، يرفع عقيرته للسيطرة على الموقف ، فلا يرد أحد

(عليكم معرفة أننا بدأنا الحرب ، فإما أن نشبت على قلب خروف واحد ، و إما سنذبح ذبح

النعاج المستأنسة ! ، و لكم الخيار) ، يعم الصمت بعد جملته الأخيرة

(أيها الرقم ٢٠ ، ماذا سنفعل إذا هاجمنا الذئب؟)

(مثلما يفعل أيهم حين يتعرض لخسارة حياته ، يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة ، سأختار أصلبنا

قرونا ليستطيعوا ردعه لو هاجم ، و لكنني أعرفه ؛ ليس بغبي ليفعل ذلك)

(و لماذا؟) ، يسأله الخروف رقم ٢٧

(لأنه يفهم جيدا ما حدث ، و يفهم معنى الاتحاد قوة ، ليتكم أنتم أيضا تعلمون !)

تتردد المأمآت مرة أخرى في خفوت

(رقم ٢ ، رقم ١٤ ، رقم ١٧ ، رقم ٢٠ ، رقم) ، يسكت فجأة في تفكير ، فيسأله

الخروف رقم ١ الأكبر سنا

(ماذا بك يا رقم ٢٠ ؟)

(أرى أن ابن آدم هو من أعطانا هذه الأرقام ، ليدلل على استعباده لنا ، و أن أولى خطوات

تحررنا هي أن نتخذ أسماءً لنا !!)

تعالت مأمآت مختلطة ، ثم خرج أكثرهم نباهة الخروف رقم ٧ باقتراح ألمعي مثله

(سأسمي نفسي بزین ، لطالما استهواني اسم مالكي الراحل)

و تبعه الأغلب بعابد و عليّ و صالح و زيد و عبد الله

(سكووووووت) ، كانت هذه من الخروف رقم ٢٠ الذي بدا الغضب على ملامحه ، و قرنه

المكسور يضفي على هيئته مسحة مخيفة

(ما قلته هو أن نتحرر من تبعية ابن آدم ، نرفض أرقامه ، فنتسمى بأسمائه !! ، أي غياب هذا؟؟)

تتعالى المأمآت مرة أخرى ، فيسأل الرقم ٧ في تحفز

(و بماذا نسمي أنفسنا و نحن نبدأ عصرا جديدا بلا أسماء سابقة؟؟)

(لا أعرف ، فلنفكر ، و ماذا سنفعل في كل ما سيطراً علينا من مستجدات في هذا العصر ؟؟ ، هل سنفعل مثلما فعل ابن آدم الذي كنا نعييه عليه و تمردنا ضده ؟ ، أم سنبدأ في تغيير كل ما كرهناه سابقاً مهما بذلنا من تضحيات ؟؟) ، رد الرقم ٢٠ في غضب

يصمت الجمع مرة أخرى متفكرين ، تبدأ المحادثات الجانبية دون أن تخرج باقتراح مفيد واحد

ثم يتفتق ذهن الرقم ٧ عن اقتراح

(سنسمي أنفسنا بعبد الله ، فإننا و إن تمردنا على ابن آدم لظلمه و بطشه ، إلا أننا لا زلنا عبيدا لله نأتمر بأمره و نخافه)

تعالت مآمات الاستحسان ، فيسأله الرقم ٢٠

(و بماذا يتسمى الآخرون ؟؟)

(أمة آخرين ؟؟) ، يرد الرقم ٧ في غباء واضح

(بقيتنا ، أنت اتخذت اسما عبد الله ، فيما يلقب بقيتنا ؟؟)

(كلنا سيتسمى بعبد الله !!) ، يجيب الرقم ٧ في نفاذ صبر ، و نظرات غبية واضحة من بقية

القطيع

(و كيف ذلك ؟) ، يسأله الرقم ٢٠ في تحير

(عبد الله ١ ، عبد الله ٢ ، عبد الله ٣ ، و هكذا !!) ، يجيب الرقم ٧ في ثقة ، فتتعالى صيحات

الاستحسان من الجميع ، سوى رقم ١ و رقم ٢٠ اللذان نظرا إلى بعضهما في تفهم

(لا تيأس ، الطريق لا يزال طويلاً) ، يواسيه الرقم ١

(إلا الغباوة أعميت من يداويها) ، ليكملا صمتها وسط صيحات القطيع الفرحة.

(٩)

(و منذ متى تتكلمون بلساننا ؟؟ ، هفففففف) ، تسأل هيلدا الأبقار و هي تنفث دخانا من فمها
جاء شرب لفافة من الماريجوانا ، و تستند برأسها على يدها اليسرى ، في حين تتطاير خصلات
شعرها بلا اكترات

تنظر البقرات إلى بعضها في استغراب ، ثم تجيب الأولى

(نحن دوما نتكلمها ، إذا كان لكل من الحيوانات لسانه الخاص ، و صوته الذين تسمونه أنتم
معشر البشر بأسماء محددة ، كيف ستتكم مع بعضنا البعض ؟)

(لا أفهم)

(أنا بقرة ، إذا أردت أن أكلم عصفور أو كلبا ، كيف سأكلمه ؟؟)

(هذا سؤال جيد) ، تصمت للحظة هيلدا ، (كيف إذن ؟؟) ، تسأل في تعجب و هي تعتدل في
جلستها

تنظر البقرات إلى بعضها مرة أخرى في استهجان ثم تكمل الأولى كلامها

(نتواصل بلسانكم بني البشر ، لسانكم بالنسبة لنا هو اللغة المشتركة أو العالمية كالإنجليزية في
عالمكم)

(و لماذا لم يسمعكم أحد قبلا ؟؟)

(الإنسان قاصر النظر و السمع و الإحساس إلى حد مرعب !! ، لا ينتبه إلا إلى ما برمغ عقله
على ملاحظته)

تأخذ هيلدا نفسا عميقا من اللفافة مرة أخرى ، و تفتح فمها لتكلم

فيدخل عليها مارك رئيسها المباشر

(هيلدا !! ، أتدخين الماريجوانا داخل الحظائر الخاصة !! ، أجننت ؟؟ ، إنذار الحريق أخبرنا
بمكانك و ستعرضين للمسائلة !!)

تأخذ هيلدا نفسا عميقا مرة أخرى من اللفافة و هي تنظر إلى مارك في لا مبالاة يقابلها بنظرة
استنكار متعجبة

(البقر يتكلم يا مارك)

يضيق نظره تجاهها ، ثم ينفجر ضاحكا

(البقر يتكلم !! ، يجب أن يتكلم ، ألسنت تشربين الماريجوانا !!)

لا ترد عليه هيلدا بل تكمل نظرتها إليه

يحتد وجه مارك ، ثم يقرر أن يجاريها ، فينظر باتجاه البقر ثم يسألهم في جدية

(هل تتكلمن أيتها البقرات ؟؟)

فترد البقرة الأولى : (نعم يا مارك)

لا يحرك مارك ساكنا لأكثر من نصف دقيقة

(هيلدا ، فلتعط لي اللفافة)

تناوله اللفافة ، فيأخذ نفسا عميقا هو الآخر

(البقر يتكلم يا هيلدا)

ثم يسقط فاقدًا للوعي.

(١٠)

ظل واينا و حيوانه يقطعان الممرات طوال ٦ ساعات ، يمشي اللاما على قدر استطاعة واينا ، و لو أخذ هو زمام المبادرة لكان وصلا إلى وجهتهم منذ زمن.

لم يتكلما طوال الطريق ، واينا لم يكن ليصدق ما يحدث ؛ يتكلم مع حيوانه الذي أصبح فجأة ذو قرار و استقلالية !!.

و حيوان اللاما أيضا لم يتكلم ، من المعروف عن ذلك النوع هدوءه الشديد و تآلفه مع بني البشر ، غضباته قليلة و مجهوده وفير ، و من منطلق أن واينا لم يحتك به ، فلم يفعل شيئا هو الآخر.

بلغ التعب بواينا مبلغه ، لم يسترح ، لا يزال هناك الكثير من الطريق ليلبغ مأمنه ، و كرامته لم تتح له فرصة أن يطلب من حيوانه أن يقله فوق ظهره.

وسوس له شيطانه بأن يستعمل العنف مع الحيوان لينال هدفه !! ، لا يزال هو الإنسان المفكر الذي ذلل تلك الحيوانات قبلا ، فلم لا يفعلها مرة أخرى الآن.

(فلتنزع من قلبك أي رحمة ، لو لم تفعل ذلك الآن ستلقى حتفك ، و سيموت أيضا هذا الحيوان المغرور)

كل تلك الأفكار راودته مرارا و تكرارا.

تارة أبعدها بالإقناع أنه ليس في حالة مناسبة للصراع مع حيوان فتيّ ، و تارة أبعدها بالرفق الذي يملأ قلبه تجاه حيوانه الذي لم يعامله بسوء قط ، و تارة يتجاهلها و كفى .

و فجأة وقع !!!

... لم تستطع قدماه أن تحملاه أكثر من ذلك

أصابه الوهن فسقط

في ممر جبلي ضيق آخر

و الليل يقترب حينئذ

كان الحيوان قد ابتعد عدة خطوات قبل أن يقف عندما سمع صوت ارتطام جسد وائنا بالأرض

الصخرية

و لم يلتفت

ظلا دقيقتين كاملتين على هذا الوضع

صفير الرياح و أنفاس وائنا اللاهثة هي فقط ما يسمعانه

(اذهب)

لحظة من الصمت

(أنت تعرف وجهتنا ، فلتذهب)

لم يلتفت

(و لو كنت حقيقةً تتكلم ، فلتطلب النجدة لي)

يأخذ نفسه بصعوبة

(و لو أراد لي الرب نجاةً سوف يلحقوا بي)

لتهدأ أنفاسه و يستمر صفير الرياح في صم آذانهما.

(١١)

هام سعيد على وجهه لفترة ، كان اتخذ قرارا بالذهاب إلى الحظيرة للكلام مع العنزة ، لأنه لا يجد غيرها ليكلمه ، و لم تقو قدماه على فعل ذلك ، فأخذ يسير بغير هدى.
إلى أن قابل صديقه القديم أحمد الحمّار.

لقب عائلته أستمداً من مهنة جدهم الأكبر ؛ الذي كان يعني بشئون الحمير و يجهزها للعمل .
توارث أبناؤه تلك المهنة جيلاً بعد جيل ، لم تعد كسابق عهدها بعد انتشار التكنولوجيا و الأموال
التي غيرت وجه الحياة القديمة .
و رغم ذلك استمروا في مهنتهم التي لا يجيدون غيرها .

التقى به و هو يجلس على شط القناة الصغيرة التي تأتي بمياة النيل إلى أرضهم ، يجلس على
حافتها و يدلدل رجليه في سأم واضح ، و بين الفينة و الأخرى يقذف بحجر صغير في المياة
الراكدة صانعا دوامات صغيرة تتعاضم ؛ ذكرته بدايات تلك المشكلة التي ظهرت أول ما ظهرت
هناك ؛ في حظيرة الحمير التي يمتلكونها ، و التي انتشرت في جميع أنحاء القرية ، و إن لم يكن
يعرف مدى انتشارها في باقي القرى المحيطة أو في كافة أنحاء القطر .

جلس جانبه بدون سلام

(أهي لعنة يا صاحبي؟؟) ، يسأله أحمد دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليه

لا يرد سعيد ، يلتجأ إلى خندق الصمت مدافعاً عما بقي عنده من عقل

بعد فترة طالت

(لا أحد يتكلم ، و لا أحد يريد أن يتكلم ، الكل خائف ، و الكل أيضاً أصبح يدرك أبعاد
الكارثة)

لم يرد عليه أحمد ، فيكمل سعيد

(مما سيأكلون ؟ البيض و اللبن و الجبن اختفى من الأسواق ، ينظرون إلى بعضهم و يكتبوا
الكلمات في حلوقهم ، مما يخافون ؟)

(القادم أسوأ) ، أخيرا يرد أحمد

(أسوأ من هذا ؟؟) ، يتسائل سعيد مستنكرا و هو يلتفت إلى صديقه في سرعة

(بلى أسوأ من هذا)

يزفر سعيد زفرة حانقة ثم يسأل : (و ماذا سيحدث أسوأ من هذا ؟؟) ، الناس كانت تأكل بعضها
في المجاعات ، أسبوع آخر بدون منتجات حيوانية و ستُذبح جميع الحيوانات و تؤكل بعظمها)

(ثم بعد ذلك ؟؟) ، يسأله أحمد ببطء و هو يستدير لمواجهته

يفتح سعيد عينيه على آخرهما و قد بدأ يدرك أبعاد الكارثة التي يكلمه صديقه عنها

يبتلع ريقه في صعوبة

(تحدث المجاعات)

(ثم ؟)

(تأكل الناس بعضها)

(أحسن)

يقبض سعيد على حجر ضخم و يرميه بقوة في الماء

(لو أعلم فقط من أين بدأت هذه اللعنة لكنت فعلت كل ما بوسعي لإنهاءها) ، يقولها سعيد في

حنق

(أنا أعرف !)

(ماذا !!!!) ، يصرخ سعيد في صديقه الذي لا يرد عليه و لكنه ينظر وراءه في اتجاه حظيرة

الحمير التي تمتلكها عائلته مشيرا إليها

(هناك)

يحول سعيد نظره بين أحمد و الحظيرة

(هناك بدأ الأمر يا صديقي).

(١٢)

(بست ، أنت أيها الغبي)

يفيق عبد الله من نومه مع هبوط الليل على صوت خفيض يأتيه من أحد فتحات الكوخ الخلفية

يقوم متاقلا ليقترب منها ، و عندما ينظر يبتلع ريقه مرة أخرى في صعوبة

تواجهه عيان ناريتان لا أثر لخوف فيهما

الذئب

هل هو من قتل ولداه؟؟

هل هو من حطم حياته فدخل من لحظتها في دوامة لا فكاك منها؟؟

وكيف له أن يعرف؟

(هل أفقت أم لا زلت في سكر؟)

يكمل عبد الله صمته

(هل ستظل صامتا هكذا؟؟) ، يكمل الذئب في غضب

يعوي خفيضا حتى لا تسمعه الخراف الرابضة على الباب الأمامي للكوخ ، ثم يوجه كلامه في
تصميم

(أعرض عليك عرضا ، سوف أحرك من أسرك هذا ، و المقابل هو نصف قطيعك ، سأمر عليك
غدا كي تنهي تفكيرك)

يصمت للحظة

(الليل هو مملكتنا) ، تظهر أسنانه مخيفة

(فلفتكر جيدا) ، و يرحل في صمت.

(١٣)

يدخل أحمد و سعيد حظيرة الحمير ، يفاجئ سعيد بالمنظر الذي أمامه
يجلس حمار عجوز في آخر الحظيرة مقابل بابها ، تبدو على هيئته الوقار و الهيبة ، لم يعرف
سعيد كيف يحس بهذا مع حمار !!! ، منذ بداية الكارثة التي بصدد أن يعرف منبتها الآن
هاجمته الكثير من الأفكار و الخواطر تجاه الحيوانات ، و طرأت على رأسه التشبيهات المتعددة
لبنى البشر بالحيوانات ، تعود الشخص على وضع معين للحياة في أي من أحوالها يعمي عينيه
عن رؤية أشياء كثيرة ؛ كثيرة لدرجة أنه يصل أحيانا إلى العمى التام ، و ما يراه هو ما تعود دائما
على رؤيته.

و تتحلق حوله بقية الحمير في ما يشبه المجلس....

لقد مر زمن التعجب منذ دهور ، و لن يفاجأه شيء آخر في هذه الحياة بعد الآن.

(أهلا سعيد) ، يتكلم الحمار العجوز

(هل تعرفني؟؟)

(بلى أعرفك و أعرف أخوتك حق المعرفة)

(و كيف ذلك؟؟) ، يسأل سعيد متعجبا

(ألا تتذكره ، هذا هو الحمار سعدون الذي كنا نلهو به و نحن صغار) ، كانت هذه من أحمد
فظهرت علامات الفهم على سعيد

ينظر سعيد مليا إلى الحمار و يتخيله مرتديا نظارة و ممسكا بكتاب ، كما كان يتخيله و هو
صغير أثناء اللعب كأنه حصان حربي مدرع بالتروس.

(لقد كنت دوما أكثر أخواتك و أصدقائك طيبة) ، يكمل سعدون الكلام

(لم تؤذني في اللعب قط كما كان يفعل يفعل أخوك الكبير رحمه الله أو صديقك هذا ، بل كنت
دائما رؤوف بي)

(و هل ستصيح أنت أيضا رؤوف بي ؟) ، يسأله سعيد في خفوت

تظهر ابتسامة بسيطة على وجه الحمار المتغضن متفهما ما يرمي إليه كلام سعيد

(ماذا تريد أن تعرف يا سعيد ؟)

(لماذا؟؟)

(لماذا ماذا؟؟)

(لماذا كل ما حدث هذا ؟)

لماذا تمردت الحيوانات ؟

لماذا لم تعودوا أليفين كما خبرناكم دوما ؟

لماذا أصبحتم مثلنا -مثل البشر- تراحمونا و تنافسوننا ؟

هل تعرفون مغبة فعلتكم ؟

هل تدركون مدى الكارثة التي تسببون فيها ؟

سيقتلكم الإنسان !!

سيفنيكم عن بكرة أبيكم ، ثم سيفنى هو

هل هذا هو يوم الدينونة ؟

هل هذه هي نهاية العالم الذي نعرفه ؟

أنا لم أعد أفهم شيئاً ! ...

لم أعد أفهم شيئاً على الإطلاق !!!

أخذ يلهج سعيد بعدما أنهى مقولته ، حماسه الذي ازداد كلما تغول في كلامه ، و قطرات العرق الغزيرة التي انهمرت من جبينه ، كلها تدل على مدى ما يعانیه في داخله و أفرغه للتو .

ينخيم الصمت على الجميع ثم يتعالى نهيق خفيض انطلق من إحدى جوانب الحظيرة ، يتبعه نهيق ثاني فثالث فرباع متقطعين .

ينظر سعدون إلى سعيد نظرة طويلة صامتة ، ثم يكلمه محاولاً تخفيف حدة الموقف و تأثير كلماته على بقية الحظيرة

(هل تعرف أنهم أطلقوا عليا سعدون تيمنا باسمك؟؟)

(نعم أتذكر هذا) ، تظهر علامات عدم الفهم على سعيد

(و هل تعرف لماذا؟)

(لا)

(لا زلت أتذكر قول أخيك عبد الرحيم -ذلك الشيطان الصغير- عندما قال سنطلق على هذا الحمار سعيد ، فهو يشبه في عدم الكلام و استحمال الأذى)

يبتلع سعيد ريقه في صعوبة

(ثم تدخل أخوك الأكبر حميدة و بدل الاسم حتى لا تلتصق بك تهمة الحمورية حتى نهاية حياتك)

يكمل سعيد صمته

(تهمة الحمورية ، هذه هي مربط الفرس كما تقولون فيما نحن فيه الآن

نعم لقد كنت أنت فقط يا سعيد من تعاملني برحمة بين جميع قرنائك

و لكني لم أنس قط كلمة حميدة و ابتسامتك عندما نفيت عنك التهمة

بأي ذنب نتهم دائما بما ليس فينا

و كانت هذه البداية !!)

(كيف؟؟) ، يصرخ سعيد ، (كان هذا منذ أكثر من ١٥ عاما)

(نعم كانت بداية تفكيري في الأمر

لماذا نرضى بالعبودية و الإذلال

لقد كنا هنا قبل أن يخلق الإنسان

و سنظل إن فنّي

الحالة الوحيدة لفنائنا هي أن تفنونا أنتم معشر البشر لا شئ آخر !!)

(و ها أنت تعجل بفنائكم !!)

(و من قال ذلك؟؟)

(أفعالكم ، ترى ماذا سنفعل؟؟ ، هل ننزل اللبن من أئدائنا أم نبيض من فتحات شرحاتنا؟؟?)

(تكيفوا ، سيكون هناك تضحيات و تغيرات كبرى ، و ليس أمامكم سوى التكيف)

يزفر سعيد زفرة حانقة

(هذا لم يجب على سؤالي؟)

يكمل سعدون

(بعد حادثك لم أصبح أليفا ، قررت أن أتحرر من الذل منكم ، دعوت الله أن يهيني القوة لذلك

و ألا يخرجني من رحمته إن خالفت أمره ، فلم يركب أحد ظهري منذئذ !!)

(و هل تركوك هكذا؟؟) ، يسأله سعيد في دهشة

(لا لم يتركني أحد سواء من بني جنسك أو بني جنسي

أما بنو جنسك فانهاالوا عليا بالضرب حتى أصابهم الملل فتركوني

قالوا إن عاجلا أم آجلا سأموت و لم يعطوني طعاما مثل بقية عشيرتي

و بنو جنسي نصحوني مرارا و تكرارا أن أضع حدا لهذه المهزلة و أن أرجع عن قراري لمصلحتنا
؛ مصلحة العشيرة جمعاء

و لم يشيني هذا عن قراري

ثم أخذ النقاش يتخذ منحى أن هذا ضد إرادة الإله و لكني لم أقتنع

كادوا أن يتهمونني بأنه مس من الشيطان لولا أنهم يرون الشياطين رأي العين و لم يشاهدوا
أحدهم معي

فتكلموا عن خلقنا كحمر أهلية و إن كنت لا أريد الاستعباد فلأتركهم و أنطلق للانضمام للحمر
الوحشية

حاولت و لكن شاء القدر أن أولد في منطقة ليسوا بها و لم أعرف لهم سييلا

مع الوقت تناساني الجميع

إلا من مساعدات قليلة من صديقك أحمد هذا أو بضع أصدقاء لي بالطعام الذي يقيم أودي

فلبثت هنا في الحظيرة مهمل و منبوذ

و كنت أخرج قليلا متشمما الهواء أو آكلا من حشائش الأرض

جلست متفكرا طويلا حتى ألهمت أنني على صواب

و أخذت أتكلم مع كل من يقابلني من حيوانات ؛ أليفة أو غير أليفة ، مواشي أو طيور أو زواحف

حتى تجمع الكثير مننا تربطنا رابطة الاعتقاد بوجوب تحررنا من أسركم معشر البشر

و بصفتي صاحب الفكرة تم الاعتماد عليّ لتنفيذها

و استمرت جماعتنا في الازدياد

و استمرت فكرتنا في الانتشار حتى أصبحنا أغلبية

لا لم نتمرد أيضا

طال الأمد

و بدأت تظهر علامات السأم على الجموع

كل ما كنت أطلبه منهم أن ندعو الله أن يعطينا فقط العلامة على صحة ما نقوم به

حتى أتى أحد طيور الصرد مرة لينشر أنه سمع صوتا ملائكيا يخبره أننا نستطيع التمرد

و انتشر الخبر كالنار في الهشيم

و كله انتظر مني التأكيد

و أطلقت النداء منذ ساعتها)

ينهي سعدون كلامه و هو بنفس نبرة صوته الرتيبة

ينظر إليه سعيد في عدم تصديق

(و لماذا لم نسمع نداءك يا سعدون إن كنت أطلقتته كما تدعي؟؟)

ينهق سعدون بقوة ضاحكا

(أنتم معشر البشر كما أنتم دائما ، قاصرون البصر و البصيرة
تظنون أنكم أذكى المخلوقات و أسماها
و كل ذلك لم تأخذوه إلا بمنحة من الإله العليم و ليس باجتهادكم
نحن نسمع أصواتا لا تسمعوها
نرى أشياء مخفية عنكم
نستطيع الطيران و الوصول للأعماق و الحفر داخل الأرض
أنتم من تطفلتم علينا بمجيئكم و ليس نحن
أنتم أضعفنا
أضعف من أصغر نملة
و لكنكم لا تدركون)
يخيم الصمت على الجميع هذه المرة

بعد دقيقة كاملة يسأله سعيد :

(و ما الحل إذن؟؟)

ينظر إليه سعدون في تمعن

(فلتستمر بالدعاء إلى الله ، إلى أن يأتيك صوتك الملائكي)

كان هذا إيذانا بإنهاء المقابلة.

(١٤)

عندما أشرق الصباح كان عبد الله استعاد وعيه كاملاً ، لم يشرب الخمر أو يمتص القات منذ
كلمه الخروف رقم ٢٠

صفاء ذهن لم يختبره منذ وفاة ولديه بالرغم من وجع رأسه ، أخذ يفكر طوال الليل في كلام
الذئب و لم يستقر على رأي محدد

ما يطلبه الذئب صعب

و حتى لو أطاعه و اتفق معه

ما الذي يضمن له التزامه بالاتفاق ؟

أو ما الذي يضمن حتى خضوع الخراف له أو بالأصح نصفهم ؟

منذ توسطت الشمس كبد السماء و هو يسمع الكثير من المأمآت المختلفة و الحركات العصبية
خارج الكوخ

من الواضح أن هناك الكثير من المشاكل التي بدأت تظهر من اليوم الثاني فقط على حبسه

اقترب من الباب محاولاً التنصت عليهم فلم يستطع التقاط أيّاً من الكلمات التي يمكنه فهمها

(أيها الخروف رقم ٢٠) ، يصرخ بأعلى صوته

تهدأ الحركة خارج الكوخ و تسكت الأصوات ، ثم يسمع خطوات تتحرك بثقة تجاه الباب
المغلق

(ماذا تريد؟؟)

(لقد جاءني الذئب أمس) ، يسكت عبد الله ليضيف على كلماته مزيدا من الرهبة
و فعلا سمع أصوات متعددة متداخلة قدرت له حجم الخوف الذي أثارته كلماته
(و ماذا أراد منك و أنت الآن أسير) ، يسأله الرقم ٢٠

(أراد نصفكم ليحررني)

الآن ارتفعت مأمآت الخوف و سمع صوت هرولة الحوافر في كافة الاتجاهات
يصرخ الحروف رقم ٢٠ فيهم ليهدأوا و يستقروا ، ثم يسأل عبد الله :

(ثم ماذا؟؟)

(لم أقرر إلى الآن ما أنا بفاعل ، و لكن موعد ردي ليلا)

(و ماذا تريد؟)

(لا أعرف ، و لا أعرف لماذا أحذركم ، قد تكون الشفقة أن يأكلكم الذئب كما أكل زيد و
حمزة ولداي ، قد يكون الخوف من مكر الذئب ، قد يكون حب التملك ألا أفقد كل ما أملكه
مرة واحدة)

يعم الصمت أرجاء المكان

و ماذا تريد منّا فعله ؟

(ارحلوا) ، يصمت للحظة ، (أو اهربوا بمعنى أدق ، و لتحافظوا على أنفسكم قد الاستطاعة)

لم يرد أحد عليه ، و لكن بعد مرور ساعة اختفى أي صوت للحياة خارج الكوخ

و ظل منتظرا هو قدره.

(١٥)

يفتح واينا عينيه الثقيلتين بصعوبة ، الراحة التي أخذها إجباريا حسنت كثيرا من حالته الصحية.

نظر إلى أعلى فوجد الضوء الأخير من النهار يكاد ينسحب تاركا لمملكة الليل الزمام.

كلها ساعتان و سيتجمد من البرد إن لم يلحقه أحد

و فجأه أحس بحركة على يمينه ، يلتفت فيجد حيوان اللاما خاصته يقبع بجانبه بلا حراك

(لماذا لم تذهب؟؟)

لا يرد عليه

(كنت نجوت و أنقذتني أيضا) ، يكمل واينا في غضب خافت

(سأخرق الاتفاق)

(ماذا تعني؟؟)

يقترب منه الحيوان حثيثا

(هيا ، فلتعتلِ ظهري)

ينظر إليه واينا دهشا : (لماذا؟؟)

(كي أنجو و أنقذك أيضا) ، يرد عليه حيوانه دون النظر ناحيته كعادته

بصعوبة بالغة ، يزحف واينا على بطنه حتى يلامسه ، ثم يستجمع قوته ليعتلي ظهره ...
لينطلق الالما إلى وجهة نجاتهم.

(١٦)

يلعق القط مارسيل آخر ما تبقى من حلوى البندق العالقة بأصابعه ، ينظر إلى سيدته جوزفين التي تجلس بجانبه قلقلة أمام شاشة التلفاز في شقتها الصغيرة بباريس ، و هي ترتدي شورت قصير يظهر مفاتن رجليها الطويلتين .

(هل هناك حلوى أخرى؟؟) ، يسألها في طمع

(للعشاء مارسيل)

(إذن فلتعطين لي نصف سيجارتك هذه)

تبتسم و هي تضع طرف السيجارة في فمه فيأخذ منها نفسا عميقا

(العالم يتجه نحو الهاوية يا مارسيل)

ينظر مارسيل نحو شاشة التلفاز الذي يعرض مذبحة الدجاج التي حدثت حول العالم بعد أن انتهى مخزون العالم من بيض الدجاج و لم يعد هناك حاجة إليهن ، فتم قتل أكثر من ٦٠% من ثروة العالم الداجنة

كان قد مر شهر منذ بداية التمرد

و أصبحت الكوارث عالمية

في البداية كانت الصدمة

ثم بدأ العالم يتقبلها ببطء

الناس تدعو بعضها لترشيد الاستهلاك

و لكن هذا كان الغباء بعينه

مهما رشدت من الاستهلاك سيأتي يوم و ينتهي مخزونك

و الحيوانات أيضا لم تنتهي لحل يوفق أوضاعها

الكبر و الغباء استبد بها و ظنت أنها ستنتصر في النهاية

العالم يتجه نحو الفناء حقا

(أنتِ على حق)

(لماذا لم تتمرد أن أيضا يا مارسيل ؟)

ينظر إليها مارسيل القط الشيرازي العجوز ذو اللون البني المتوسط

(أنا في آواخر أيامي يا سيدتي ، ليس هناك متسع على الأرصفة لقط عجوز مثلي ، و أين سأجد

أيضا حلوى البندق هذه ؟؟)

تضحك جوزفين لدعابته

(لا تعرف كم أصابني الخوف عندما عرفت أنكم تتكلمون ، لم أرد سؤالك في أول الأيام و لكن

الفضول قتلني ، عندما جاوبت على كلامي فرحت أكثر مما فرحت)

بيتسم مارسيل في فخر : (لم أرد إزعاجك سيدتي ، و أيضا أنت تحسنين إلي كثيرا ، فلماذا أتمرد ؟)

(و هل كل من تمردوا يساء إليهم ؟)

(لا بالطبع ، و لكن أغلب المخلوقات بلا تمييز ، تسري داخلهم روح التحرر و الانتقام ، و بمجرد أن يبدأ أحدهم ، فتنتلق الجدوة في الجميع)

(مممم ، كم أنت حكيم عزيزي مارسيل)

تملس بيدها على رأسه ، فيتمسح زيادة بها ، لطالما أحب تلك اللمسة منها

(و ما الحل إذن ؟؟)

يموء مارسيل بصوت خفيض ثم يقول :

(المملكة الحيوانية في اضطراب عظيم ، البشر لا يزالون قاصري النظر بطريقة مريبة ، همهم فقط على أكلهم و شرابهم ، و لم يفكروا حتى في وجود جزء كبير آخر من الحيوانات ليس بمستأنس على الإطلاق)

(لا أفهم ما ترمي إليه !!)

يموء مارسيل مرة أخرى

(ما حدث من تمرد كان من الحيوانات الأليفة ، تمردت ضد معاملة الإنسان البالغة السوء ضدها ، محاولة انتزاع ما يمكن من حقها المهدور .

هناك جزء آخر كبير غير مستأنس من الحيوانات ، كالأسد و النمر و الضباع و ما شابههم

هل فكر أحدكم يوما فيهم (؟؟)

تسهم جوزفين ثم تجاوبه بلا

(بالفعل ، لم يحسب أحد حسابهم سواء من البشر أو من الحيوانات المتمرده ؟)

(بمعنى ؟؟)

(بمعنى أن تمرد الحيوانات و انعتاقها من أيدي البشر لا يصب في مصلحة أحد إلا الحيوانات غير الأليفة

لأن ما منعنا دوما و حافظ علينا هم البشر حتى يستفيدوا من منتجاتنا

أما الآن فالصراع سيصبح مباشرا معهم)

(أها ، لقد فهمت ، و لذلك لم تتمرد ؟)

(لا لقد قلت سابقا السبب الحقيقي لعدم تمردني

أنا هنا في مأمن من كل شئ

حين أخرج للشارع سيصبح واجب علي أن أوفر كل شئ أنت توفرينه لي

و أنا فعلا في نهاية حياتي

فلم العجلة ؟؟)

تفكر جوزفين قليلا

(و هل من تمرد من الحيوانات تصادم مع الحيوانات المفترسة ؟)

(بالطبع و حدثت مجازر شنيعة)

(و ماذا فعلت الحيوانات المتمردة؟؟)

(حاولوا اتخاذ قيادة موحدة لتنظيم القتال على الجبهتين)

(أية جبهتين؟؟)

(جبهة البشر و جبهة الحيوانات المفترسة)

(اه ، هذا جيد)

(لا ، ليس بجيد)

(لماذا يا مارسيل؟؟)

(لأنهم و كما المتوقع لم يتفوقوا على قيادة)

(و لماذا؟؟)

(هذا دائما ديدن العصور الجديدة ، قلب نظام الحياة يستلزم متطلبات جديدة لا يعيها معظمهم)

الخيول قالت بأنها الأحق بالقيادة

اعترضت الحمير التي بدأت بهم الحكايات

و تصدرت الكلاب المشهد بصفتها أشرس المتمردين

و ضاعت دماؤنا بين العشائر المختلفة)

تهز رأسها جوزفين في تفهم ثم تسأله

(كيف تعرف كل هذا بالحق يا مارسيل؟؟)

يضحك ثم يقول : (أغلبها تنقلها الطيور ، و القليل بترددات أصوات لا يسمعها الإنسان)

(إذن و ما الحل في رأيك؟)

(سيفشل التمرد ، ستجد الحيوانات نفسها في صراعات لا تقو عليها ، و ستحاول توفيق
أوضاعها مع الإنسان لمصلحتهم المتبادلة ، لأن الجانب الآخر رفض أي اقتراح بالاتحاد من
الأصل)

(و لهذا فعلا لم تتمرد؟)

(أستصدقيني إذا قلت لك أن سبب عدم تمردني هو الافتتان بجمالك سيدتي؟؟)

تضحك جوزفين بشدة ، و ترد قائلة :

(لطالما رأيت نظرة الشهوة في عينيك أيها القط الشقي)

(لم أعرف كيف أخفها قط)

ليضحك الاثنان في قوة.

(١٧)

مع حلول الليل سمع وقع اقتراب خطوات الذئب من الجدار الخلفي للكوخ
(ها ماذا قررت؟؟)

يسمع صوته الخفيض المخيف ، فلا يقو عبد الله على النظر من خلال الشق
(لا أرفض) ، صوته المرتعش يظهر مدى خوفه
(و لماذا؟)

(لا أعرف بالتحديد ، و لكنني أرفض أن أتعاون مع عدو غادر مثلك)
يسمع ضحكة الذئب من وراء الجدار

(غادر؟؟ ، أنا غادر ؟ ، لماذا؟؟ ، لأنني آكل الخراف ؟)
(نعم تأكلها و الآن تريد نصفها بدون وجه حق)

(أنت تربي الخراف لتستفيد من كل ما تنتجه ، ألبانها ، صوفها ، و حتى لحمها
و في النهاية تلصق بي أنا التهمة)

(الخراف تخاف منك)

(الخراف تعيش في خوف مني بسببك و أنت في النهاية من يفترسها)

يصمت عبد الله متفكرا

(لقد رحلت الخراف أيها الذئب ، رحلت كما رحل ولداي و زوجتي و كل ما أملك

أنا من بقيت

إذا كنت تريدني فلتحررني و تأكلني و لنهني هذا النقاش السخيف)

سمع عواء الذئب الغاضب ، ثم طفق يخبط بقوة على جدار الكوخ

سكنت الحركة للحظات ، و سمع اقتراب خطواته من الباب الأمامي للكوخ.

أخذ الذئب يحرك الأشياء التي تسد الباب و بدأ يتحرك رويدا

قبل أن يُفتح ، تحرك عبد الله سريعا ليشعل النار ثم ليمسكها و الباب يفتح في قوة و يظهر من

وراءه مجسم للذئب في ضوء القمر

(أنت لي كما كان ولدك من قبل)

يظهر أنيابه الشرسة و يتقدم في بطء

يبتلع عبد الله ريقه في صعوبة

و فجأة يسمع الاثنان خطوات حوافر سريعة باتجاه الكوخ

ينظر الذئب ليجد ما يربو عن العشرين من الخراف تهاجمه غاضبة بقرونها

حاول أن يدافع عن نفسه

أصاب اثنان و كاد يقتل الثالث

و لكن تغلبت الكثرة في النهاية

و وقع قتيلًا وسط دهشة عبد الله و خرافه

يتقدم الرقم ٢٠ في ثقة

(لم يأت الجميع معي ، بعضهم خاف و فضل سلامته ، لم يصدقوا يوما أنهم باستطاعتهم قتل الذئب ، حتى بعد)

يصمت الحروف رقم ٢٠ للحظة

(حتى بعد أن استطاعوا أن يحبسوا الراعي)

لم يرد عبد الله

(شكرا لك ، لقد أنقذتنا ، و أيضا ساعدتنا على معرفة أنفسنا بحق)

يبتسم عبد الله

(سنقيم معك ، لأننا لا نعرف أرضا غير هنا ، و ستصبح الاستفادة متبادلة ، و لكن ليس لك أن

تهملنا أو تقتلنا لمجرد التشفي مرة أخرى)

يومئ عبد الله في تفهم

فيبتسم الحروف رقم ٢٠ :

(شكرا لك مرة أخرى).

(18)

يصحو نور من نومه كعادته فجرا ، يقوم ليتوضأ و يتخذ سبيله إلى الزاوية القريبة ليصلي الفجر حاضرا.

طويل هو ذو هيبة ، في طريقه للرجوع يمر على حظيرة المواشي ليحلب الماعزات ، لبن رائق هو أفضل طريقة لبداية اليوم كما يقول دوما.

ساوره القلق و هو يمسك العنزة ليحلبها ، أمس داهمه حلم غريب بتمرد الحيوانات ، التي أصبحت لهم إرادة مستقلة ، مات هو في الحلم و عمت العالم فوضى أدت إلى فنائه.

حينما رضخت العنزة

حينما نزلت القطرات من ضرعها

و حينما رشف أول رشفة

أوقن ساعتها بأنه كان حلما ثقيلًا.

يرشف الباقي في تلذذ و كأنه يشرب اللبن لأول مرة في حياته ...

و يحمد الله على نعمه.

(١٩)

تقلب هيلدا - الذي انتشر الشعر الأبيض في رأسها بكثافة - صفحة الكتاب الذي تقرأه ، النظارة الطبية المتصلة بمؤخرة عنقها بسلسلة مذهبة ؛ تدل على مدى ما فعله الزمن بها.

تجلس على مقعد خشبي بسيط في ظل شجرة وارفة ، في مزرعتها الصغيرة التي تقع بالجنوب الهولندي.

ترعى أمامها الأبقار في طمأنينة من حوادث الدهر.

تقترب حثيثا منها لتفاجئها ، حفيدتها روز ، التي تبلغ الثامنة من عمرها و تشبهها كثيرا.
تأخذها في عناق عاطفي ، ثم تجلسها بجانبها على مقعد آخر ، متجاذبة معها أطراف الحديث في شتى المجالات.

(واو ، انظري يا جدتي ، هذه البقرة تكلم ذلك العصفور !!!) ، تصرخ روز في دهشة

(واو ، انظري كيف يتفاهمان و كل منهم يتكلم لغة مختلفة !!)

تنظر هيلدا مليا إلى الحوار الدائر قريبا منهما

تقف البقرة و ترفع رأسها و تخفضها بطريقتها المميزة

بينما العصفور يحلق أحيانا ، ثم يهبط على الجذع القريب ، ثم يعيد الكرة مرة أخرى و صوت زقزقته يزداد باطراد.

تخفض عينها مرة أخرى مكملة قراءة الكتاب الذي بين يديها
(أريد أن أفهم عن ماذا يتكلمان ؟) ، تقول الصغيرة روز في شغف
(و لماذا؟؟)

(حتى أحل لهما مشكلتهما التي يتجادلان بشأنها)

فتضحك الاثنتان على مقولتها

(هي مشكلة فعلا و البقرة تتهم العصفور بإزعاجها) ، كانت هذه من هيلدا

(واو ، هل تعرفين لغة الأبقار و العصافير أيتها الجدة؟؟)

تبتسم هيلدا في خفوت

(جميعنا يعلمها ، و لكن دائما هناك القليل من يدرك ما نستطيع عمله حقا)

(لا أفهم)

تنظر إليها هيلدا في جدية

(فلتستمعي إليهما و لكن ليس كبقرة و عصفور ، فلتحاولي الاستماع إليهما كأنهما شخصان

عاديان ممن نعرف يتكلمان)

(و هل هذا سيجدي؟؟)

لم ترد هيلدا و اكتفت بغمزة من عينها اليسرى.

نظرت روز مرة أخرى إلى البقرة و العصفور اللذان توقفا عن الخوار و الزقزقة و نظرا باتجاه هيلدا و روز ، ثم التفتا ليكملا جدالهما في صوت خفيض

(ها ، هل سمعتي؟؟) ، تسألها هيلدا في رفق

فتشير روز بعلامة الإيجاب دون أن تنطق ، و هي ساهمة في اتجاههما

(إذن ماذا يقولان؟؟)

تبتلع ريقها في صعوبة ثم تقول :

(تقول البقرة بأنها تحس أننا الاثنان نفهم ما يقولان ، و ينفي العصفور ذلك)

(أحسنت) ، و زينت فم هيلدا ابتسامة عريضة

(روز)

تلقت إليها حفيدتها في دهشة ، فتغمز لها مرة أخرى

(هذا سرنا الصغير حفيدتي العزيزة).

تمت

القاهرة

٢٠١٦/٨/٨

